

تزرعون سبع سنين دأباً

١ - تحليل اجتماعي

سنبدأ قصتنا مع يوسف - عليه السلام - من قصر العزيز ، لنرى نموذجاً من التحلل الاجتماعي والانحياز الأخلاقي في قصور الطغاة وقتئذ . . شاب في ريعان صباه في معزل عن أهله ، بعيد عن توجيههم ، جاء إلى القصر بعد تجربة قاسية من سوء معاملة الإخوة سواء وصل بهم إلى اللقاء في غيابة الحب وبيعه رقيقاً . . هذا بعد أن يسمع من أبيه بشارة العمر التي أوحاها الله إليه ، حين أخبر يوسف : « وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ، وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ، إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » [يوسف : ٦] .

بهذا التراث الروحي جاء يوسف مصر وعاش في بيت العزيز . فإذا بالشر يأتيه من البيت الذي يعيش فيه . .

فع الترف الذي كان فيه البيت وأهله انحلال خلقي يبدو بأكثر من صورة :

١ - صورة مراودة امرأة العزيز فتاها عن نفسه . . وكان منها بمنزلة الابن .

٢ - صورة تخاذل رب البيت في حسم الأمر ، بعد أن عرف بانحراف زوجه وبراءة يوسف . وكان كل همه أن يكتم آلامه فلا تصل أخبار الحادث إلى المدينة ، واكتفى بأن أمر زوجه بالاستغفار لذنبيها ، وأمر يوسف بالصمت والإعراض عن هذا الذي حدث .

٣ - صورة استكبار امرأة العزيز مرة أخرى ، وسعيها لجمع نساء المدينة اللاتي سمعن بالقصة وإخراج يوسف عليهن في محاولة لتبرير ما فعلت : « فَذَلِكَ الَّذِي لَمْتُنِّي فِيهِ » ثم إنذار يوسف بالسجن إذا لم يفعل ما تأمره به « وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ، وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ »

[يوسف : ٣٢]

٤ - صورة السلطة الباغية التي كانت في يد امرأة العزيز والتي استطاعت بها أن تلقى بيوسف في السجن ، وكان كل ذنبه صيانتة لنفسه وأهل البيت الذين يعيش معهم . ولم يذكر القرآن السبب الذي من أجله دخل معه السجن : ساقى الملك والحجاز . كذلك يعطينا القرآن صورة من صور هذا التجبر الذي يبدو مع سيطرة الترف وفساد الجهاز الحاكم وقتئذ إذا علمنا أن القرآن لم يحدد المدة التي قضاها يوسف في سجنه ، وإنما قال تعالى : « فَلَبِثَ فِي السُّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ » [يوسف : ٤٢] ، في حين أنه في أهل الكهف يقول : « وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَمِائَةٍ مِّنْ سِنِينَ وَأَزْدَادُوا تِسْعًا » [الكهف : ٢٥] .

ومن الممكن متابعة التحليل الاجتماعي للقصة . . وإنما الذي يعيننا الآن انعكاس هذا على الأوضاع الاقتصادية في المجتمع ، وغفلة الحاكمين عن النظر إلى مصالح الناس ، وقصر النظر الذي عاشوا به ، حتى صرفهم عن التدبير لأمر المستقبل . .

كان مجتمعاً يعيش ليومه : المترفون والحكام في شهواتهم ، والشعب مضيق بمثله يوسف والذين كانوا معه ، ومن حول الحكام « طبقة » يعطينا القرآن صورة من صور أحاديثها عندما اهتمت بقصة امرأة العزيز مع فتاها . . هذا والمجاعة على الأبواب .

ويصف الإمام ابن القيم موقف يوسف قائلا :

« وقد ذكر الله سبحانه وتعالى عن يوسف الصديق صلى الله عليه وسلم من العفاف أعظم ما يكون ، فإن الداعى الذى اجتمع فى حقه لم يجتمع فى حق غيره ، فإنه صلى الله عليه وسلم ، كان شاباً والشباب مركب الشهوة ، وكان عزباً ليس عنده ما يعرضه ، كان غريباً عن أهله ووطنه والمقيم بين أهله وأصحابه يستحي منهم أن يعلموا به فيسقط من عيونهم ، فإذا تغرب زال هذا المانع ، وكان فى صورة المملوك والعبد لا يأنف مما يأنف منه الحر ، وكانت المرأة ذات منصب وجمال والداعى مع ذلك أقوى من داعى من ليس كذلك ، وكانت هى المطالبة فيزول بذلك كلفة تعرض الرجل وطلبه وخوفه من عدم الإجابة ، وزادت مع الطلب الرغبة التامة والمرادة التى يزول معها ظن الامتحان والاختبار لتعلم عفافه من فجوره ، وكانت فى محل سلطانها وبيتها بحيث تعرف وقت الإمكان ومكانه الذى لا تناله العيون ، وزادت مع ذلك تغليب الأبواب لتأمن هجوم الداخل على بغته ، وأتته بالرغبة والرغبة ، ومع هذا كله عف لله ولم يطعها ، وقدم حق الله وحق سيدها على ذلك كله ، وهذا أمر لو ابتلى به سواه لم يعلم كيف كانت تكون حاله ، فإن قيل : فقد هم

بها ، قيل عنه جوابان ، أحدهما : أنه لم يهم بها ، بل لولا أن أرى برهان ربه لهم ، هذا قول بعضهم في تقدير الآية . والثاني : وهو الصواب أن همه كان هم خطرات فتركه لله فأثابه الله (عليه) : وهما كان هم إصرار بذلت معه جهدها فلم تصل إليه فلم يستو الهمان « (١) .

٢ - انذار

ويأتى الإنذار الإلهي في صورة رؤيا يراها الملك : « إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ، وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ، يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنَّ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ » [يوسف : ٤٣] .

ونستطيع أن نرى مظاهر متعددة للسلبية في هذا الموقف : « أفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ » ثم رد من حوله « أَضْمَغَاتُ أَحْلَامٍ وما نحن بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ » [يوسف : ٤٤] .

ويعود القصر إلى ما فيه من حياة يومية عابثة .

وتتكامل بهذا صورة ما في قصر الملك مع ما في قصر العزيز . وإذا كان الملك قد أغمض عينه عن حقائق الحياة في مصر ، أو ألقى الذين من حوله بينه وبين الحقيقة حجاباً ، فإن هذه الحقائق قد لاحقتة في

(١) ابن القيم : روضة المحبين ٣١٨ - ٣١٩ .

منامه ، وصورت له المصير الرهيب الذى ينتظر البلاد إذا لم يدبر أمرها . .
ولم تكن المجاعات غريبة عن مصر من حيث ارتباطها - أساساً -
بارتفاع النيل وانخفاضه ، وما يتعلق بذلك من فقر وأعباء جديدة تضاف
إلى ما يحمله الشعب من أعباء تنوء بها الجبال . . . ولكن من حول الملك
كانوا على شاكلته لا يريدون عملاً جاداً . . . وهم - حتى فى المجاعة -
يستطيعون أن يدبروا أمر أنفسهم فما لهم ولهذا الجموع الشعبية ؟ . .
وما لهم والجهد التنظيمى الكبير ؟

٣ - خطة طويلة

وعندما يتذكر ساقى الملك صحة السجن ، ويخبر الملك بأمر يوسف
يفسر يوسف الرؤيا ويقسمها إلى ثلاث مراحل :

١ - تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ
فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ،

٢ - ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعُ شِدَادٍ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ
لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ .

٣ - ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ
يَغْصِرُونَ . [يوسف ٤٧ - ٤٩] .

وأول ما نلاحظه على هذه الخطم الطويلة التى تستغرق خمسة عشر
عاماً ، أن رؤيا الملك فيها تقتصر على المرحلتين الأولى والثانية ، ومدتهما



معاً أربعة عشر عاماً . وأن المرحلة الثالثة لم ترد في رؤيا الملك ؛ ولذلك كانت من مقام النبوة . وكذلك تفاصيل العمل في المرحلتين الأولى والثانية .

ولنعرض ملامح هذه الخطة الطويلة :

١ - الطابع الغالب على المرحلة الأولى هو : الإنتاج والادخار مع استهلاك محدود . فيوسف حدد خط الإنتاج بالزراعة وحدد استمرار الإنتاج الزراعي بسبع سنين . . العمل فيها دائم لا يتقطع . ومع هذا الجهد الكبير في الإنتاج المستمر كان هناك تحديد واضح للاستهلاك يبدو في قوله : «إلا قليلاً مما تأكلون» . وأمر يوسف بحفظ السنابل المخزونة من الغلال كاملة كما هي « فذروه في سنبله » والسنبله - كما نعلم - عند طحنها توجه إلى ثلاثة أبواب رئيسية : الأول طعام للإنسان ، والثاني طعام للحيوان ، ويمكن الاستفادة من قشرها أيضاً في صناعة الطوب اللبن . فكان تنظيم الخطة هنا شمل أكثر من جانب من جوانب الحياة فضلاً عما في حفظ السنبله كاملة من صيانة .

٢ - فإذا ما انتهت سنوات الإنتاج السبع ، بما فيها من جهد متصل دائم ، واستهلاك محدود ؛ كان على الخطة أن تقابل تحدياً ضخماً هو توفير الأقوات سبع سنوات عجاف . . وبعبارة أخرى : بعد الإنتاج والجهد الدائب في المرحلة الأولى سيأتي تحمل أيضاً في المرحلة الثانية ، وهو تحمل يحتاج إلى تنظيم دقيق يصل فيه الطعام إلى كل فم .

٣ - ومع هذا التحمل والتنظيم الدقيق ، ينبغي ألا تأتي السنوات العجاف على « كل » المدخرات ، وإنما كان يوسف واضحاً في قوله : «إلا قليلاً مما تحصنون» . فكان هذا الجزء المدخر هو « الحميرة » التي تستطيع بها الأمة أن تقابل متطلبات البذر الجديد بعد السنوات العجاف . . إنه إعادة استثمار المدخرات .

أما إذا جاءت السنة المرتقبة بفيضاتها المرتفع فلم نجد بذوراً ، فإذا تثبت الأرض ؟ ولهذا لا يمكن أن يتحقق الغوث المنتظر في المرحلة الثالثة وتتوافر الغلات التي يعصرونها ، إلا إذا كانت الخطوة قد استعدت لهذا كله .

كان على يوسف عليه السلام أن يوازن بين ثلاثة جوانب : الأول الإنتاج ، والثاني الاستهلاك ، والثالث الادخار . وأن يعيد استثمار المدخرات .

ومن طبيعة التطور أن تختلف « تفاصيل الصورة » ولكن أساسها سيظل قائماً عميقاً في ديننا وراثتنا .

٤ - العنصر البشري في الخطوة

ولقد أشارت الآيات الكريمة إلى جوانب أخرى ارتبط بها نجاح الخطوة ارتباطاً مباشراً ، وأهمها جانبان يجمعهما عنصر واحد هو العنصر البشري وعلاقته بنجاح الخطوة :

١ - الجانب الأول يتعلق بيوسف نفسه ، وفي هذا الجانب نرى أمرين :

أولهما : أنه لم يرض - ابتلاء - أن يعمل في هذا الأمر وظلال الشك من حوله . فحينما طلبه الملك قال للرسول : « ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النُّسُوءِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ؟ » [يوسف : ٥٠] .

ودار تحقيق جديد بدت فيه براءة يوسف . واعترفت النسوة واعترفت امرأة العزيز بهذه البراءة ، وأقرت : ذلك « لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ

بِالْغَيْبِ ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْخَائِنِينَ • وَمَا أُبْرِيْ
نَفْسِيْ ، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيْ ، إِنَّ
رَبِّيْ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . [يوسف : ٥٢ - ٥٣] .

وعندما بدت هذه البراءة وتجلي نقاء يوسف ، قال الملك :
« أَتُتُونِيْ بِهِ أَتَخْلِصُهُ لِنَفْسِيْ ، فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ
الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ » قال يوسف « اجْعَلْنِيْ عَلَى خَزَائِنِ
الْأَرْضِ إِنِّيْ حَفِيظٌ عَلِيمٌ » [يوسف : ٥٣ - ٥٥] .
هنا نجد تطبيقاً سليماً لقاعدة «الرجل الصالح في المكان الصالح» .
وإذا كان يوسف قد طلب إظهار براءته ، فقد كان لهذا أثره العلمي في
توافر الثقة فيه ، والاطمئنان إلى أخلاقه ، وأنه لن يستغل مكانه الذي
يسيطر فيه على الأقوات في محاباة أحد أو البطش بأحد ، أو الانحراف
الذي قد يسوق إليه ما في يد الفرد من سلطة . ولو كان يوسف قد قبل
العمل دون إظهار هذه الحقيقة ، لكان من الممكن أن يحاول من حول
الملك الطعن فيه ، مستغلين الغموض الذي أحاط بالحادث في قصر
العزیز .

ومن هنا يبدو التكامل القوي بين الحطة والمخططين . بين حساب
الأرقام وحساب الأخلاق .. بين الأسس المادية والقيم الروحية في المجتمع .
بين الدين والحياة .

٢ - الجانب الثاني يتجلى في اختيار معاونين الدين ساعده في

عمله . فعندما جاء أهله فعرفهم وهم له منكرون ، وجهزهم بجهازهم ، ثم عادوا إليه في المرة الثانية وآوى إليه أخاه ثم وضع السقاية في رجل أخيه ، وذهب رجاله يبحثون عن صواع الملك ثم استخرجها من رجل أخيه ، قال لإخوة يوسف : « يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » فكان رد يوسف : « مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا ظَالِمُونَ » [يوسف : ٧٨ - ٧٩] .

فكان من رجال يوسف العون الصادق على تنفيذ أوامره بدقة وهدوء .
فهنا نجد انعكاس أخلاق يوسف عليهم ، وضرورة العامل البشري على مستوى القيادة والمستوى الشعبي في نجاح الخطوة بعد التأكد من صحة أسسها المادية .

ولقد استطاع يوسف بهذا أن ينقذ مصر من المجاعة ، وأن يجعل في مخازنه من الغلال ما يكفي مصر وما حولها . وحتى في ظل هذه الظروف القاسية ، لم تكن مصر منطوية على نفسها تقول : أنا وبعدي الطوفان ، وإنما مدت يد العون إلى جيرانها ولم تبخل عليهم بالغلال ، برغم ما كانت تعانيه من ضغوط .

وما أجمل الربط بين الدنيا والآخرة في القصة بعد الربط بين الأسس المادية والروحية فيها . وفي هذا يقول الله تعالى : « وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ، وَلَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » . ولأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ

لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ » [يوسف : ٥٦ - ٥٧] .

هذه قصة تخطيط حفظها لنا ديننا ، وأنزلها الله على رسوله ، استطاع بها يوسف أن يحل نمطاً من أنماط المعادلة الصعبة ، موازناً بين جوانب الإنتاج والاستهلاك والادخار بما يحقق الخير ، معيداً استغلال المدخرات ، معتنياً في الوقت نفسه بكل من الأسس المادية للخطة وجوانبها البشرية ، مثيراً حوافز العمل المادى ، مع صيانتة بضوابط من القيم الروحية التى تعمل من أجل إثراء الحياة ناظرة - في الوقت نفسه - إلى ما بعد الحياة من جزاء ، سجله يوسف في دعائه :

« رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ، وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ
الْأَحَادِيثِ ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَنْتَ وَلِيِّى فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » .
[يوسف : ١٠١] .